القرآن : من المتكلم ؟

إثبات ربانية الكتاب المجيد

د. نبيل عبد السلام هارون

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

هارون، نبيل عبد السلام
القرآن: من المتكلم؟ إثبات ربانية الكتاب المجيد/ د. نبيل عبدالسلام هارون- ط١ – القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠٠٦.
٦٤ص، ٢٤سم.
تدمك ٠ ١٩٠ ٣١٦ ٩٧٧
١ – القرآن ، إعجاز
أ- العنوان
٢٢٩,٧

تاريخ الإصدار: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

حقوق الطبع: محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢١٣٢١

الترقيم الدولي: ISBN: 977-316-190-0

الكود: ٣/٣٧٨

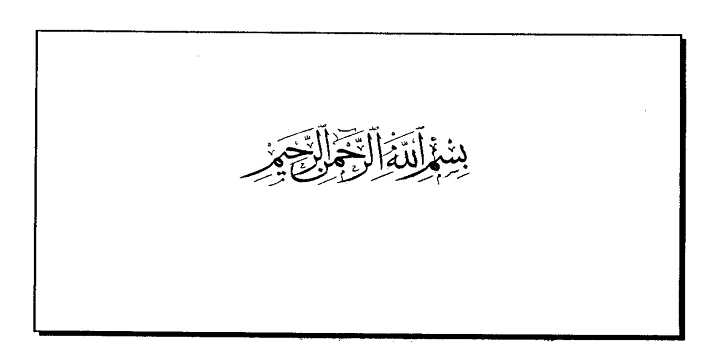
دار النشر للجامعات - مصر

ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨

تليفون: ٦٣٤٧٩٧٦ - تليفاكس: ٦٤٤٠٠٩٤

E-mail: Darannshr@Link.net

القرآن : من المتكلم؟


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن معجزة الله الخالدة، التي أيد الله بها الله تعالى رسوله خاتم النبيين محمدا ﷺ، وتعهد بحفظها إلى قيام الساعة؛ لتبقى برهانا حيا على صدق تنزيله من رب العالمين. برهانا يخاطب كل العقول ويناسب كل الأفهام، كلا حسب ما وُهب من فطنة وما اكتسب من علم. يشعر بجلاله وطلاوته عامة الناس وخاصتهم، ويعجز الفصحاء والبلغاء أن يأتوا بمثله، ويبهر العلماء والحكماء بسمو منطقه ودقة إشاراته العلمية والتاريخية. إلا أن ثمة قاسما مشتركا يجمع كل من أصغى بقلبه وعقله فآمن: هو ذلك الشعور بجلال الربوبية في الخطاب القرآني، دون أن يملك المرء أن يصفه أو يحدد مصدره.

وهذه محاولة لاستكناه مكامن جلال الربوبية في أساليب الخطاب القرآني، والتي نحسب ونأمل أن تكون بإذن الله مدخلا جليا وأساسا قويا لدعوة الناس جميعا على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم، دون ما حاجة لخوض في جدل فكري أو تحليل علمي أو تحقيق تاريخي، مما لا يملك مفاتحه إلا المتخصصون في هذا أو ذاك.

الفريضة المنسية

قال تعالى مخاطبا أمة الإسلام:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠] .

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)﴾ [البقرة:١٥٩].

ثم قال لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ [سبأ:٢٨] .

﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

فبلغنا رسوله وعلمنا القرآن، وفصل لنا مجمله، وبين لنا معالمه، وجسده في سنته نموذجا عمليا حيا يُقْتَدَى به إلى يوم الدين:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ [النحل:٤٤].

وفي الحديث الشريف:

«تَرَكْتُ فيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُما : كتابُ اللهِ وسُنَّتي ، ولَنْ يَتَفَرَّقا حتى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْض» (الحاكم) .

ثم أمرنا ﷺ وحضنا وحبب إلينا السعي لهداية الناس جميعا إلى نور الإسلام:

«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَة» (البخاري)

«لِيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ فإنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبْلِغَ مَنْ هو أَوْعَى مِنْه» (متفق عليه)

«فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِي اللهُ بِكَ رَجُلاً واحِداً خَيْرٌ مِنْ أن يكونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم» (متفق عليه).

«يا أبا ذَرٍّ لأَنْ تَغْدو فتُعَلِّمَ آيَةً مِن كِتابِ الله خَيْرٌ لَكَ من أَنْ تُصَلِّي مائةَ رَكْعَة، ولأَنْ تَغْدو فتُعَلِّمَ باباً من العِلْمِ عُمِلَ به أو لَمْ يُعْمَلْ بِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّي أَلْفَ رَكْعَة» (ابن ماجه) .

فكانت الدعوة إلى الإسلام هي خير الجهاد، بل هي مناط الجهاد وغايته:

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان:٥٢]. "به" أي بالقرآن.

وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، ويُقاتِلُ رِياءً، فَأَيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقال: «مَنْ قاتَلَ لِتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيا فهو في سبيلِ الله» (متفق عليه).

عم يتساءلون؟

عندما ينطلق كل منا بهذه الرسالة – التي حملنا بها الله ورسوله – لندعو بها كائنا من كان، ملحدا أو بوذيا، أو هندوكيا أو نصرانيا، أو يهوديا أو علمانيا؛ كلا بلغته التي يفهمها، وعلى قدر عقله وعلمه، وبعد أن نعرض عليه قبسا من الجوانب المشرقة لهذا الدين، وروعة كتابه، وحكمة تشريعه، وعظمة رسوله، وخيرية أمته؛ فإن أول ما قد يتبادر منه – إن استمع إليك – أن يسألك أو يتساءل في نفسه: "ما الذي يثبت أن ذلك الهدي القويم وذلك الكلم الطيب الذي تسوقه إليه، أي القرآن الكريم، هو كلام الله كما تؤمنون، وأنه قد أوحي به إلى نبيكم محمد، وليس كلاما ألفه تأليفا، ثم جهر به في قومه؟"

هنا نجيب السائل بما كان ﷺ يجيب به المشركين عندما كانوا يطلبون آية على أن هذا الخطاب، الذي عرفوا له قدره من السمو والرفعة، إنما هو كلام الله حقا. كانوا يطلبون آية وبرهانا، فكانت الآية والبرهان هي القرآن ذاته، كما في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت:٥١].

ذلك لمن أصغى بقلبه وتدبر بعقله:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤].

ثم تحداهم أن يأتوا بمثله:

-﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٣-٣٤].

-﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨].

-﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود:١٣] .

-﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس:٣٨].

وقد كان؛ فقد سلموا بعجزهم وأخبتوا إلى دعوة الحق، ودخلوا في دين الله أفواجا: إلا متكبر معاند، أو ضال جاحد قد أصم أذنه وعطل عقله، أو أحبار ورهبان يخشون ضياع مالهم وسلطانهم. فقد استشعر المشركون بسليقتهم اللغوية – ولأول وهلة – أن هذا القرآن ليس بقول بشر – وقد خبروا كلام البشر وهم أهل الفصاحة والبيان. لم يكن الأمر لهم مجرد إعجاب بفصاحة القرآن وجزالة بيانه – وهو أيما جزل وفصيح، ولا مجرد طرب لسماعه وتذوق لحلاوته – وما أحلاه وما أطربه للأذن. فالإعجاب والطرب لا ينشئان وحدهما إيمانا بَلْهَ يقينا، ولا يتجاوزان بالمرء حدود الرضا والإمتاع الوقتي الذي لا يلبث أن يزول. وإنما أدركوا بسليقتهم اللغوية أن أسلوب القرآن وسياق الخطاب فيه هو المنبئ والمعلن عن مصدره العلوي، إذ يعلن الله فيه عن نفسه بصِيَغ المتكلم (مثل: نحن، و إنَّا، و سنريهم ... إلخ)، ويتكرر ذلك تباعا على امتداد القرآن، وفي الموضع

والمقام المناسب لجلال المتكلم، كما يتوجه الخطاب مرارا إلى الرسول ﷺ مباشرة (بمثل النداء: يا أيها النبي، أو: قُلْ كذا وكذا، أو غير ذلك من الأساليب). فأسلوب وسياق الخطاب في القرآن يثبت أنه ليس كلاما صادرا "من" النبي ﷺ بل هو صادر "إليه من خارجه"، يخاطبه ويخاطب البشر كلهم من علٍ، ولا دخل للرسول ولا لغيره من البشر كائنا من كان فيه.

وبمثل هذا المنطق المستقيم المباشر، منطق استشعار مصدر هذا القرآن من فحواه وأسلوبه وسياق خطابه، كما سنفصل في هذه الرسالة، دخلت شعوب الأرض لا عربا فحسب، بل شعوبا عجما تنطق بشتى اللغات، دخلت في دين الله أفواجا حين أدركت رويدا رويدا أن هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، يستوي في ذلك عربي تذوق روعة لغة القرآن وإعجاز بيانه، أو أعجمي لم يتذوق شيئا من ذلك.

***

منهج الاستدلال

وتعالوا الآن نفصل بعض الشيء: كيف كان أسلوب الخطاب في القرآن مدخلا وبرهانا للإيمان بأنه كلام رب العالمين؟ سواء بالنظر في نصه العربي أو فيما يفهم من معناه بغيره من اللغات؟

هب أن إنسانا عثر على كتاب منزوعا غلافه، أو مخطوط قديم مجهولا مؤلفه، ثم حاول أن يتبين صاحبه ويتحقق مصدره، فإنه سينظر فيه ليستشرف من سياق الكتاب وموضوعه، ومجرى الخطاب فيه وأسلوبه، ويضاهيه بما يناظره من كتابات الأقدمين والمعاصرين؛ عله يهتدي إلى مَنْ كتب الكتاب؟ وإلى مَنْ كتبه؟ ومناسبة ومكان وزمان تأليفه. وأسلوب المؤلف مرآة تعكس ذاته وقدره وعلمه وخصاله، وكما أن بصمات الأصابع، ثم الشفرة الوراثية، تكشف وتحدد هوية كل إنسان؛ فكذلك الأسلوب ينبئ عن صاحبه ويتعذر على غيره تقليده، وهيهات أن ينتحل كاتب مكان غيره فيصطنع كلاما ينسبه إليه دون أن يفتضح أمره لدى القراء. ولا يتطلب الأمر من القارئ إلا القليل من الفطنة، دون الغوص في أسرار التراكيب اللغوية أو التعمق في التحليل النفسي اللغوي. فما بالك باصطناع كلام القدير خالق البشر العليم؟

ثم تعالوا سويا نتناول النص القرآني ابتداء بمنهج مماثل، ودون الحاجة إلى التزود بالكثير من الأدوات اللغوية، أو المعارف الكونية والتاريخية،

ودون الغوص في تفسيره وتحليل بلاغته وإعجاز بيانه وتفاصيل موضوعاته؛ لنتبين ثم نثبت أن أسلوب النص القرآني في حد ذاته – من ناحية سياقه ومجرى خطابه – يقطع بأن المتحدث بهذا النص مصدر خارجي مستقل عن مبلغه ﷺ، و خارجي مستقل عن كل البشر المُخاطَبين؛ ومن ثم نسلِّم تسليما أن ذلك الكلم الطيب – من ألفه إلى يائه – إنما انبثق من مشكاة الخالق العليم الفرد الصمد سبحانه وتعالى.

***

الفصل الأول
إعجاز البيان

لقد ثبت عجز العرب في كل زمان ومكان عن الإتيان بمثل بيان القرآن أو أي سورة منه، رغم تحدي القرآن لهم، ورغم وجود الدافع لدى أعداء الإسلام في كل جيل وإلى قيام الساعة، ورغم انتفاء المانع، إذ كانوا أهل الفصاحة والبلاغة؛ والقرآن بلغتهم وألفاظهم وأساليبهم .

سنوجز في هذا الفصل بعضا من معالم الإعجاز البياني للقرآن التي يلمسها كل قارئ ودارس ومستمع للقرآن بعقل مفتوح وحس مرهف، ولا حاجة لنا لعرض الكثير من الشواهد والأمثلة من القرآن، إذ أن القرآن كله معجز في بيانه، قليله وكثيره وجملته.

١/١ جوانب عامة :

- النسق البديع الخارج عن المألوف من كلام العرب – شعره ونثره – وكذلك اختلافه البين عن أسلوب مبلغه ﷺ وهو القائل: «أَنا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الأُمِّيُّ (ثلاث مرات) وَلا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الكَلِمِ وخَواتِمَهُ وجَوامِعَه» (رواه أحمد).
- بل واختلافه البين أيضا عن أسلوب الأحاديث القدسية، التي أوحيت إلى الرسول بمعناها؛ فصاغها وبلغها بأسلوبه البشري.

- جريانه على مستوى رفيع واحد رغم تنوع المعاني والموضوعات، حتى آيات التشريع والأحكام، واقرأ آية الدَّيْن (البقرة: ٢٨٢)، وآيات المواريث (النساء: ١١-١٢).
- مناسبته لكل الناس على اختلاف معارفهم وعصورهم، فيفهمه ويتأثر به ويتبعه العامة والخاصة، والبسطاء والعلماء، على امتداد الزمان وتتابع القرون.
- تداخل معانيه وموضوعاته بحيث ترتبط في بناء متكامل متناسق يتعذر الإتيان بمثله؛ إذ لا يكون التنقل المتكرر في الموضوع والمعنى وتوجيه الخطاب، لكاتب بشري، إلا مدعاة للخلل والاضطراب.
- تصريف البيان بالتنوع الشديد في التعبيرات لنفس الموضوع، بحيث يؤدي كل تعبير معنى جديدا، سواء في القصص القرآني، أو أمور الآخرة أو غير ذلك.
- التنوع الشديد في توجيه الخطاب بما يتناسب مع السرد ويجسد المواقف والمعاني تجسيدا حقيقيا واقعيا (من الله إلى الرسول أو إلى جماعات من الناس، أو عن الله، أو بضمير الغائب عن أشياء أو أشخاص أو جماعات).
- الإحساس بجلال الربوبية الذي يشي به التعبير القرآني برمته، إذ يستحيل نفسيا أن يتصنع بشر تقليد هذا الأسلوب على امتداد نص بهذا القدر (وانظر تفصيل ذلك في الفصل الثالث).
- إخراج مدلول اللفظ والجملة من المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة المتخيلة، وخاصة في القصص القرآني ومشاهد القيامة. ومن ذلك أيضا

الأمثال في القرآن، مثل آية النور: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور:٣٥]

- تحويل الصور من شكل صامت إلى منظر حي ناطق متحرك، كما في وصف مجيء الليل وطلوع النهار: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾[التكوير١٧-١٨] وغيره الكثير.
- تضخيم المنظر وتجسيمه حيثما يتطلب الجو والمشهد ذلك، كما في تصوير خيل الجهاد: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ [العاديات:١-٥]. وانظر المزيد في كتاب "التصوير الفني في القرآن".
- تكامل ووحدة موضوعات الآيات والسور في القرآن ككل، بحيث يفسر بعضه بعضا، ولا يتباين ولا يختلف بعض آيه عن بعض: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]. من ذلك تكامل القصص القرآني (انظر ١/ ٤)، وتكامل الخطاب الدعوي في تناوله لكل دواعي وأسباب الكفر؛ يكشفها ويدحضها الواحدة تلو الأخرى (وانظر كتاب "لا يأتون بمثله")، وكذلك مشاهد القيامة (انظر كتاب "مشاهد القيامة في القرآن").
- خلوه من التكرار إلا لغرضين: التأكيد وما يصحبه من تضخيم المعنى وتعظيم التأثير، أو لأجل تكامل الصور والأشكال التي يعرض بها الموضوع، كما في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وسورة

المرسلات: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وسورة القمر: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾، وآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾ [الرعد].

- إعجاز الوفاء بالأهداف المتباينة والمتضادة في نفس الوقت مثل:
  - الإيجاز الشديد أو الحذف مع الوفاء الكامل بالمعاني المرادة.
  - الإجمال مع التفصيل.
  - خطاب العامة وخطاب الخاصة، كما أشرنا من قبل.
  - إقناع العقل وإمتاع العاطفة، الذي يستشعره كل قارئ متدبر، حتى في آيات الأحكام والتشريع.
- الإعجاز العددي الذي يتمثل في موافقات في تكرار بعض الألفاظ المتقابلة، التي يعجز أي مخلوق على مراعاتها مسبقا في صياغة نص بهذا الطول والتنوع، ويستحيل أن يتحقق بمجرد الصدفة المحضة، ومن ذلك ورود ذكر الشياطين والملائكة (٨٨ مرة بصيغها المختلفة)، والدنيا والآخرة (١١٥ مرة) والسيئات والصالحات (١٨٠ مرة بمشتقاتها)، والقرآن والوحي والإسلام بمشتقاتها (٧٠ مرة لكل منها).

٢/١ الإعجاز اللفظي:

- كمال الفصاحة في اختيار كل لفظ بحيث يؤدي المعنى على أدق وجه وأوفاه بما لا يؤديه لفظ آخر. وهو باب كبير من أبواب الإعجاز، منه مثلا لفظ "أغطش" بمعنى أظلم، في الآية: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾ [النازعات:٢٩]، بما يحمله اللفظ من الإحساس بالظلمة والصمت

والركود والوحشة. ومنه أيضا لفظ "سكنا" في الآية: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٦]، أي سكونا وهدوءا وطمأنينة، تشي بها جرس الكلمة، النابع من طبيعة الأحرف وتوالي الفتحات: سَكَناً.

- الاختيار الدقيق للألفاظ المتقاربة – التي تبدو مترادفة – بحيث تميز بين أدق الفروق في المعنى لكل منها، وبحيث إذا استبدل اللفظ بنظيره فقد النص عمق معناه ودقة تصويره وجمال جرسه. ومثال لذلك التمييز بين "الرؤيا" للدلالة على الرؤيا الصادقة كرؤيا الأنبياء، كما في آيات (الفتح:٢٧، والإسراء:٦٠ – للنبي ﷺ)، و(الصافات:١٠٤و١٠٥- لإبراهيم عليه السلام)، و(يوسف:٥ و١٠٠- ليوسف عليه السلام)؛ وبين "الحلم" للرؤى المهوشة والهواجس المختلطة، كما في آيات (الأنبياء:٥)، و(يوسف:٤٤). وانظر المزيد من نماذج إعجاز الترادف في كتاب "الإعجاز البياني للقرآن".
- التجانس في الدلالة القرآنية لكل لفظ ومن الألفاظ المتقاربة حيثما تكرر استخدامه في القرآن، وارجع في ذلك إن شئت إلى معاجم ألفاظ القرآن، أو إلى كتاب "المترادفات في القرآن المجيد".
- تجانس استخدام الحروف – كالباء، والواو، والفاء، و"ثم" – بنفس الدلالة لكل منها في كل أرجاء القرآن.

٣/١ إعجاز الجملة القرآنية:

- الاتساق اللفظي الصوتي، الذي تدركه الأذن – حتى لو لم تفهم المعنى أو تعرف العربية، وترتب على ذلك سهولة نطقه باللسان: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ [القمر:١٧]، وتيسير حفظه عن ظهر قلب، حتى يحفظه الطفل الصغير كما حفظته الأجيال. وليس ثمة نص بهذا الطول وهذا التنوع يسره الله للحفظ ككتابه العزيز.

- دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ من أشهرها آية القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة:١٧٩]، وكذلك الآية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩]. ومن ذلك أيضا آيات التشريع، مثل آية الرضاع (البقرة ٢٢٣) التي اشتملت على ثلاثة وعشرين حكما، وآيتا المواريث (النساء ١١-١٢) التي ضمت جل علم الفرائض (وانظر كتاب "من روائع القرآن").
- بلاغة الحذف في بعض المواقف للدلالة على المعنى بأبلغ عبارة وأكثرها تأثيرا، كما يتجلى في آيتي (طه ٦٩-٧٠): ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾، فقد حذف من بين الآيتين تفاصيل كثيرة، أي: فألقى موسى عصاه بيمينه فتلقفت حبال السحرة، فانبهر السحرة ولم يجدوا بدا من التسليم بصدق موسى فسجدوا.
- الترتيب المحكم للألفاظ داخل الجملة – تقديما وتأخيرا، وللجمل داخل الآية؛ لأدق تعبير وأعمق تأثير.
- البلاغة المثلى في توظيف الصور البيانية (كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز)، والمحسنات البديعية (كالسجع، والجناس، والطباق، والمقابلة)، والأساليب الإنشائية (كالأمر، والنهي،

والتعجب، والقصر، والفصل والوصل) في الموضع وبالقدر المناسب بلا مبالغة أو افتعال.

٤/١ إعجاز القصص القرآني:

- وحدة أهدافها لتحقيق غايات ثلاث: إثبات الوحي والنبوة، والموعظة والاعتبار، وبيان وحدة الرسالات السماوية.
- بلاغة الاقتصار على سرد التفاصيل التي تخدم هذه الأهداف.
- تكرير سرد القصة في سور مختلفة بصورة مغايرة، وبأهداف وسياق مختلف في كل مرة، بحيث يتكامل موضوع القصة رغم سردها في مشاهد ومواضع مختلفة. ويتبين لك ذلك جليا إذا ضاهيت رواية قصة كل من أنبياء الله: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب؛ في كل من سور (الأعراف) و(هود) و(الشعراء).
- إقحام النصائح والعظات في ثنايا كل قصة وكل موقف وحوار.
- العرض التصويري الحي (انظر ١/ ١).
- التنوع في استهلال رواية القصة والدخول إليها.
- العرض التمثيلي للقطات والمشاهد المترابطة، وحذف ما لا يلزم من المشاهد؛ إذكاء للتصور والخيال.

٥/١ إعجاز البيان التشريعي:

- صبغ كل المواضيع بصبغة الهداية والموعظة والإرشاد.

- التدرج في التشريع لتعويد الناس التحول عن فواحشهم، كما في التدرج في آيات تحريم الخمر، وكذلك في التدرج في تشريع الجهاد في سبيل الله.
- إظهار التيسير وتأكيد الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة لمن يتبع شرع الله.
- إبراز أسوأ سمات وأعمال الكافرين، في مقابل إبراز أسمى خصال وفعال المؤمنين.
- المقابلة دائما بين حدي الثواب والعقاب في الجنة أو النار.

٦/١ إعجاز السور القرآنية[١]:

- تكامل المعاني وتجانس الأسلوب والإيقاع لكل سورة رغم تناولها موضوعات متعددة ونزول آياتها في مناسبات متباعدة، ورغم أن:

أ- صنعة البيان في الانتقال من معنى إلى معنى أشق منها في التنقل بين أجزاء المعنى الواحد.

ب- نزول القرآن مفرقا حسب الوقائع والدواعي على تباعد زماني، مما لا يسمح عادة بالتواصل والترابط.

ج- إن جمع الأحاديث المختلفة المعاني، المتباعدة الأزمنة، المتنوعة الملابسات، في حديث واحد مسترسل هو مظنة التفكك والاقتضاب ومظنة المفارقة والتفاوت (مثال: طبق هذا على أي مجموعة من نصوص الحديث النبوي الشريف في أي باب من الأبواب – أو على غير ذلك من

(١) بتصرف عن كتاب: "النبأ العظيم" ـ محمد عبد الله دراز، تخريج وتعليق عبد الحميد أحمد الدخاخني.

الأحاديث المتفرقة لأحد البلغاء في موضوع ما – لتجعل منها سردا واحدا ليتبين لك ذلك).

د- عجز البشر عن الاهتداء إلى تحديد وضع كل جزء من أجزاء المركب قبل تمام أجزائه، بل قبل معرفة طبيعة تلك الأجزاء. وطبق ذلك على أي منشأة أو صناعة أو نشاط بشري لتوقن كيف أن وقوع ذلك في القرآن إنما هو تحدي للقدرة البشرية جمعاء إلى آخر الزمان.

- إن اجتماع هذه الأسباب كلها في كل سورة نزلت متفرقة دون أن تغض من إحكام وحدتها، ولا من استقامة وزنها هو بالتحقيق معجزة المعجزات، ولا يجرؤ في قرارة الغيب على وضع هذه الخطة المفصلة المصممة ثم تنفيذها إلا عالم عالم فوق أطوار العقل.
- كما أن مطاوعة تلك الأحداث الكونية، ومعاونتها بدقة دائما لنظام هذه الوحدات البيانية شاهد واضح على أن هذا القول وذلك الفعل كانا يجيئان من طريق واحدة، وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته[1].

٧/١ خلاصة الإعجاز البياني:

نجمل ما بسطناه عن جوانب إعجاز البيان في القرآن في أنه:

---

(١) ضُرِبَ لذلك مثلٌ عملي تطبيقي بتحليل ترابط المعاني في سلسة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات، وفي نسق واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات، وذلك في سورة البقرة، أطول سور القرآن (٢٨٢ آية)، والتي نزلت فيها وصل إلينا من أسباب نزولها في نيف وثمانين مناسبة ـ عبر تسع سنوات (انظر: النبأ العظيم ـ محمد عبد الله دراز).

أولا- "اجتمعت في بنائه كل مواصفات الكمال و الجمال، سواء في اختيار مفرداته أو ترتيب ألفاظه أو تراكيبه النحوية أو صيغه البلاغية؛ بحيث تؤدي أسمى الدرجات في: دقة التعبير عن المعاني المركبة والأحاسيس المتداخلة، مع بلوغ الغاية في إقناع العقل وإمتاع السمع والتأثير في المشاعر وتحريك العزائم، مما يؤكد أنه إنما قُدِّر تقديرا محكما وصُمِّم قبل نزوله بحساب دقيق ووزن حكيم لكل حرف وجملة وآية وسورة ثم تمام الكتاب ، مع تكامل سوره والتناسق والتكامل الداخلي لكل سورة – رغم نزوله في سور متفرقة (بل في آيات أو مجموعات متفرقة للسورة الواحدة) عبر ثلاث وعشرين عاما، وفي مناسبات جد متباينة".

ثانيا- كما أن التباين بين بيان القرآن وسائر البيان لا يتمثل في "بعض" مكونات بنائه من ألفاظ الفصحى والأساليب الإنشائية والصور البلاغية؛ فهذه وتلك نجد أمثالها في القرآن كما نجدها في كلام العرب، كما لا يتمثل في "بعض" صفات الكلام – تأثيرا وتعبيرا وجمالا- التي قد نلمسها (بدرجات: متفاوتة في كلام البشر، وبأعلى درجة في القرآن)، بل هو في اجتماع "كل" صفات الكمال والجمال وبأقصى درجاتها في البيان القرآني "بأكمله" دون سواه.

***

الفصل الثاني
الرسول و الوحي

سنثبت في هذا الفصل من وقائع سيرته ﷺ أن النص القرآني لا صنعة فيه للرسول ولا لأحد من الخلق في زمانه، وأن دوره ﷺ لم يتجاوز: تلقي النص ووعيه وحفظه، ثم تبليغه وبيانه وتفسيره، ثم اتباعه والعمل بما فيه.

٢/١ خطاب القرآن للرسول:

تكرر في الخطاب القرآني توجيه الرسول الكريم وتنبيهه إلى ما يجب عليه حيال ربه والوحي المبعوث به وحيال المؤمنين والكافرين، كما تكرر التنبيه والتحذير من الانسياق وراء ما يحيط به من فتن وضغوط، وبالقرآن كذلك ما يشبه العتاب للرسول الكريم في مواقف، وجلاء لبعض ما يضمره في قرارة نفسه الطاهرة من أمور آثر كتمانها عن الناس. ويصعب على العقل السليم أن يتخيل أن الرسول ﷺ يوجه الخطاب إلى نفسه موجها ومنبها، أو محذرا ومعاتبا، أو مظهرا ما لا يحب جلاءه، ثم يبلغ ذلك للناس قرآنا لا يُنسخ ولا يُحذف ولا يُنسى، وإنما ذلك برهان ناصع على أن القرآن كلام الله يخاطب به النبي البشرى الذي بلغ الرسالة كما جاءته وأدى الأمانة بصدق، صلوات الله عليه وتسليماته.

- **في التوجيه المتعلق بتلقي الوحي:**

١ – ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة:١٦–١٨].

«كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي حرك به لسانه– يريد أن يحفظه– فأنزل الله هذه الآية» (رواه البخاري ومسلم وأحمد)

٢ – ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤].

قال السدي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه، حتى يشق على نفسه، فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظ. فنزلت الآية.

٣– ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى:٦]

قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها. فنزلت ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بعد ذلك شيئا؛ فقد كَفَيْتُكَه.

٤ – ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس:١٠٩].

٥ – ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ

شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٥-١٦].

قال مجاهد: نزلت في مشركي مكة. وقال الكلبي: نزلت في المستهزئين، قالوا: يا محمد، ائت بقرآن غير هذا، فيه ما نسألك.

- **تنبيهات وتحذيرات قرآنية:**

١ - ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

نزلت في جماعة من قريش، كأبي جهل وأمية بن خلف. قالوا: يا محمد، تعال تمسح بآلهتنا وندخل معك في دينك. وكان يحب إسلام قومه، فأنزل الله هذه الآية.

٢ - ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الرعد: ٣٧-٣٨].

٣ - ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة: ٤٩].

قال ابن عباس: جاء بعض علماء اليهود فقالوا: يا محمد نحن أحبار اليهود، ولو اتبعناك لاتبعك اليهود كلهم، وإن بيننا وبين أناس من قومنا خصومة، ونريد أن نتحاكم إليك. فإن قضيت لنا أعلنا صدقك. فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم "واحذرهم".

٤ – ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾ [البقرة:١٤٥] .

٥ – ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة:١٢٠].

روي أن اليهود كانوا يسألون النبي ﷺ، ويُطَمِّعونه أنهم إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه ووافقوه. فنزلت هذه الآية.

٦ – ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ [المائدة:٦٧] .

عن الحسن البصري أن رسول الله ﷺ قال: إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعا، وعرفت أن الناس مكذبي، فوعدني لأبلِّغَنَّ أو ليعذبني. فنزلت: "يأيها الرسول ... "

٧ – ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾ [الأنعام:١٤].

نزلت حينما عرض كفار مكة على النبي ﷺ نصيبا من أموالهم، حتى يصير أغناهم رجلا، ويرجع عما هو عليه من الدعوة.

٨- ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام:١١٤] .

٩- ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود:١١٢] .

١٠- ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر:٨٨] .

١١- ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم:٤٨].

١٢- ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجن:٢١-٢٢].

أخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر أن جنيا من الجن من أشرافهم ذا تَبَعٍ قال: إنما يريد محمد أن يجيره الله، وأنا أجيره. فأنزل الله هذه الآية.

- **فيما يشبه عتاب الرسول ﷺ:**

١- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء:١٠٥-١٠٩] .

نزلت عندما هم الرسول ﷺ أن يستجيب لدفاع الأنصار عن طُعمة بن أبيرق الذي سرق درعا من جاره وخبأها عند يهودي.

٢ – ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٣] .

إشارة إلى إذنه لبعض المنافقين بالقعود عن غزوة تبوك، ومثلها أيضا الآية:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧].

٣– ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة:١١٣] .

نزلت عقب وفاة أبي طالب عم النبي ﷺ ، واستغفار النبي له رغم رفضه الاستجابة لنداء الرسول أن يشهد أن لا إله إلا الله.

٤ – ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام:٥٢]

نزلت في جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء لغشيناك وحضرنا مجلسك، وأراد النبي ﷺ ذلك طمعا في إسلامهم.

٥- ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على قبول أخذ الفداء عن أسارى غزوة بدر من المشركين.

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١]

لتحريمه على نفسه شرب العسل، إرضاء لعائشة وحفصة رضي الله عنهما غيرة من زوجه زينب بنت جحش رضي الله عنها.

٧- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ [عبس: ١-١١].

لإعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى لانشغاله بالحديث مع بعض من صناديد قريش طمعا في إسلامهم.

- **إعلان القرآن بما يضمره الرسول:**

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا

﴿... فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾ [الأحزاب:٣٧].

٢/٢ موقف الرسول من الوحي:

- تأخر الوحي عنه أكثر من شهر في قصة الإفك، رغم حاجته القصوى للرد على المنافقين والطاعنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧)﴾ [النور:١١-١٧].

- تبرؤه ﷺ من علم الغيب إلا ما يوحى إليه:

﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الأنعام:٥٠].

﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف:١٨٨].

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف:٩].

– وعن الرُّبَيِّع بنت معوذ بن عفراء: جاء النبيُّ ﷺ فَدَخَلَ حينَ بُنِيَ عَلَيَّ فَجَلَسَ عَلى فِراشي كَمَجْلِسِكَ مِنّي فَجَعَلَتْ جُوَيْرِياتٌ لنا يَضْرِبْنَ بالدُّفِّ ويَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبائي يَوْمَ بَدْر، إذ قالتْ إحداهُنَّ: وفينا نَبِيٌّ يَعْلَمُ ما في غَدٍ، فقال: دَعِي هَذِهِ وقُولِي بالذي كُنْتِ تَقولين (البخاري، وأبو داود).

- **اجتهاده في تفسيره لبعض الآيات، حتى ينزل الوحي مخالفا لما ارتآه:**

كما كان في موقفه من الصلاة على عبد الله بن أبي كبير المنافقين عندما راجعه عمر رضي الله عنه قائلا: أَتُصَلِّ عَلَيْهِ وقد نَهاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّي عَلَيْهِ؟ فقال ﷺ: إنما خيرني الله فقال:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، وسأزيده على السبعين... فَصَلَّى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤]، فترك الصلاة عليهم. (البخاري ومسلم).

٣/٢ في استحالة أن يكون ﷺ قد تلقى الوحي عن معلم بشري(١):

إن كان محمد ﷺ – جدلا – قد أخذ القرآن عن معلم فلنبحث بين الأوساط البشرية عن ذلك المعلم:

---

(١) بتصرف عن كتاب: "النبأ العظيم" ـ محمد عبد الله دراز ـ تحقيق وتخريج عبد الحميد أحمد الدخاخني.

- **بين الوثنين والأميين؟**: لا يكون الجهل مصدرا للعلم.

- **بين علماء أهل الكتاب؟**: هل كان منهم يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد ﷺ وقرآنه تلك اليد العلمية؟ لقد كان موقف القرآن منهم موقف المصحح لما حرفوا، الكاشف لما كتموا:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) ﴾ [آل عمران:٦٥].

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) ﴾ [البقرة:١٤٠].

﴿ ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران:٩٣].

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) ﴾[آل عمران:٩٦].

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران:١٨١].

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾ [المائدة:٦٤].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣].

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزُّخرُف: ٥٧-٥٨].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ

عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾
وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾
فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء:١٥٥-١٦١].

فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يتلقى عنهم صاحب القرآن علومه أم بالعكس ترى منه معلما يصحح لهم أغلاطهم وينعي عليهم سوء حالهم؟

▪ **ولنعد مرة أخرى فنسأل:** هل كان علم العلماء يومئذ مبذولا لطالبيه مباحا لسائليه؟، أم كان حرصهم على هذا العلم أشد من حرصهم على حياتهم، وكانوا يضنون به حتى على أبنائهم؟ استبقاء لرياستهم أو طمعا في منصب النبوة الذي كانوا يستشرفون له في ذلك العصر؟، واقرأ هذه الآيات البينات:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة:٧٩].

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران:٧٨].

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [آل عمران:٩٣].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران:٧١].

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة:١٥].

- من زعم أن له معلما من البشر فليسمه: ما اسمه؟ ومن الذي رآه وسمعه؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟ وما أدراك من هو ذلك البشر الذي قالوا أنه يعلمه القرآن العربي المعجز، الذي كشف وصحح تحريف أهل الكتاب وضلال المشركين، وجاء بمعارف ومفاهيم سبقت معارف كل البشر بقرون؟ إنه حداد أعجمي (رومي) بمكة:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل:١٠٣].

حقا، من ضاقت به دائرة الجد لم يسعه إلا فضاء الهزل.

***

الفصل الثالث
ما هو بقول بشر
توجيه الخطاب في القرآن

إن القارئ المتدبر المنتبه، الذي يقرأ القرآن على مكث، لا يفوته التنوع والتغير المستمر في أسلوب توجيه الخطاب؛ فالقرآن لا يجري على نسق واحد من أسلوب الخطاب؛ بل يتبدل أسلوب خطابه أولا بأول تبعا للسياق، بما يلائم – بمنتهى الدقة – مقتضى المعنى وطبيعة المخاطبين والتأثير المراد. فهو إما:

١ –خطاب من الله بصيغة المتكلم، باستخدام ضمائر المتكلم المباشرة:

"نحن"، كما في قوله:

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان:٢٨] .

أو: "أنا"، كما في قوله:

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

أو الضمائر غير المباشرة، كضمير الألف اللينة:

– في موضع الفاعل، كما في قوله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩].

– أو في موضع المضاف إليه، كما في قوله:

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر:٥٠].

أو ضمير الياء في موضع المضاف إليه (عبادي)، أو الفاعل (فإني) كما في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦].

٢ – خطاب عن الله بصيغة الغَيْبَة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣] .

٣–خطاب موجه من الله إلى النبي بلفظ مباشر، كالنداء "يأيها":

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥].

أو بلفظ "قُلْ":

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

أو بضمير المخاطَب، كالتاء:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧].

أو الكاف:

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى:٣] .

٤ – خطاب موجه إلى جماعات بعينها، كالمؤمنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال:٢٧].

أو أهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران:٧١].

أو بني إسرائيل:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة:٤٠].

أو الناس جميعا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجُرات:١٣].

أو الإنس والجن:

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرحمن:٣٣].

٥ – كلام يُرْوَى على لسان أنبياء يتكلمون به:

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦].

أو على لسان غيرهم من البشر:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

أو غيرهم من المخلوقات:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل:١٨].

٦- كلام عام بأسلوب الغَيْبَة في سائر الكتاب:

إما أن يروي أحداثا، كما في القصص القرآني:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف:١٥].

أو يصف نفوسا وأفعالا:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح:٢٩].

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون:٤].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧].

أو يقرر حقائق:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

أو يثبت قواعد دنيوية أو أخروية:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٢].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨] .

أو يقرر أحكاما:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] .

أو يشير إلى معارف ومفاهيم:

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل:١٥] .

***

مقاصد تنوع أساليب الخطاب في القرآن

كما أسلفنا، يتغير أسلوب القرآن في الخطاب من موضع لآخر في السياق. ولا يحتاج المرء لكثير تدبر ليلحظ أن ذلك التغير، لا يجري عبثا بل إنه يأتي دائما بحيث يعبر، بأقصى درجات الدقة وبحساسية بالغة، عن تغير المعنى المراد – تبعا للمواقف والموضوعات والمخاطَبين، وبما يليق بجلال ربوبية الله، ويناسب قدر المخاطَب أو المخاطَبين:

١ – الخطاب المباشر من الله سبحانه وتعالى بضمير المتكلم "نحن" أو "أنا"، أو ضمائر المتكلم: كنون الفعل (نفعل)، وكالألف اللينة (نا) أو الياء (ني) – كلاهما ضميران للمتكلم الفاعل أو المضاف إليه – كما سنرى في الشواهد.

ولا يكون الخطاب بهذه الصيغ إلا تعبيرا عن جلال الربوبية في تقريره: لنعمه على خلقه:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

أو لقضاء فاصل:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤].

أو لحكم قاطع:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ [المائدة:٣٢].

أو لوعد نافذ:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

أو لوعيد منذر:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء:١٦]

أو للقدرة المطلقة في الخلق والبعث:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق:٤٣].

أو لغير ذلك من مظاهر وأمور ربوبيته سبحانه وتعالى.

٢- ذكر الله تعالى باسم الجلالة أو بصفاته أو بضمير الغائب "هو"؛ وذلك في مجالات الوصف والتعريف، والإخبار عنه والتذكير به وما إلى ذلك:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١-٤].

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ [الحشر:٢٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾ [التوبة:١١١].

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم:٣٤].

وفي هذه الأمثلة، وغيرها من المواضع التي يذكر فيها الله بصيغ الغَيْبَة، تعبير وإشعار أيما إشعار بجلال الربوبية؛ فإنه يتنزه جل شأنه أن يتحدث بضمير المتكلم عن آلائه وصفاته، وعجائب قدرته وأفعاله، أو أن أن يتبسط في الخطاب بقول "فعلت كذا" أو "قلت كذا"؛ إذ لو صدر الخطاب في مثل هذه الأمور بضمائر المتكلم لتدنى بمكانة القائل نحو مكانة المخاطَبين، وحاشا لله العلي الكبير!

خذ لذلك مثلا لو قُلِبَ الخطاب في الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، إلى صيغة المتكلم: أنا الله لا إله إلا أنا الحي القيوم، لا تأخذني سنة ولا نوم، من ذا الذي يشفع عندي إلا بإذني ...!

أو قُلِبَ الخطاب في الآية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ

نُورٌ ﴾[النور:٣٥] ، إلى صيغة المتكلم أيضا: أنا نور السماوات والأرض، مثل نوري كمشكاة فيها مصباح ...! لترى كيف يتضاءل جلال الخطاب بالخالق ويتبسط بالقول فيه تجاه مخلوقيه.

وبالمقابل أيضا لا يختلف الأمر لو أعدنا الكَرَّة على نماذج من عبارات الخطاب المباشر من الله بضمائر المتكلم، فقلبت إلى صيغة الغَيْبَة. فمثلا لو قلبت الآية: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر] ، إلى: إن الله نزل الذكر، وإنه له لحافظ! أو قلبت آية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، إلى: لو أنزل الله هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشيته ...! ألا يزيدك الفرق يقينا بما أسلفناه وبيناه؟

ثم طبق ذلك إن شئت على أي مَثَل مما أوردناه من أمثلة في هذا المبحث، أو طبقه على أي عبارة في القرآن ذُكِر الله فيها بصيغة أو ضمير الغائب، حين يقلب الخطاب فيها إلى صيغة المتكلم، لتدرك وتتيقن كم هي سعة البون بين كلام الله وكلام البشر؟

٣- الخطاب من الله إلى الرسول:

تذكيرا بآلاء الله وقدرته:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [البقرة:١٠٧].

أو بأمور الغيب والآخرة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟

أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٩٣] .

أو تحديدا لدور الرسول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب:٤٥].

أو تثبيتا له وشدا لأزره:

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضُّحى:٣-٥] .

أو تشريفا له وتكريما:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١] .

أو تذكيرا بنعم الله عليه:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشَّرح:١-٣].

أو أمرا إليه خاصة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم:١].

أو إلى المؤمنين من خلاله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾ [الطلاق:١].

أو جوابا لسؤال المؤمنين أو غيرهم:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥].

أو تسجيلا وتذكيرا لأحداث:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران:١٢١].

أو كشفا لضلال الكافرين ومكرهم:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة:١٢٠].

أو ردا على أباطيلهم:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن

فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة:١٧] .

أو توجيها لأسلوب التعامل معهم: .

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران:٦١]

وفي هذه المواضع كلها يبرز دور الرسول وموقفه من الخطاب القرآني، كما فصلنا في الفصل الثاني (الرسول والوحي)، في أنه لا يخرج عن كونه متلقيا للوحي، مستقلا عن مصدره، مبلغا له بحذافيره لا يزيد فيه ولا ينقص.

٤ – سائر أنواع الكلام التي لا تتعلق بمبحثنا هذا؛ من سرد لقصص وأخبار، وحقائق وآيات، وحِكَم وأحكام، ووعد ووعيد وما إلى ذلك في سائر النص القرآني.

تحول الأساليب (الالتفات) في القرآن

إن من أجلى ما يتميز به كلام الله في القرآن عن كلام سائر البشر هو ذلك التنوع والتغير المتوالي في وجهة الخطاب وأسلوب إنشائه عبر السياق القرآني – من آية لآية، أو من عبارة لعبارة بنفس الآية ، وهو ما يطلق عليه: "الالتفات".

ويعرف الالتفات لغة بأنه "تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر". وهو من أسمى صور البلاغة، وأكثرها تنبيها للقارئ، ومن أقوى دلائل الإعجاز، إن لم يكن أقواها، كما سيتبين لنا بعد قليل.

وللالتفات في القرآن صور متعددة، يعنينا منها في هذا المقام خمس:

١ – الالتفات من الغَيْبَة إلى الخطاب المباشر بصيغ المتكلم:

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾[النمل:٨٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [النحل:٤١].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[الشورى:٢٠].

٢ – الالتفات من صيغة المتكلم إلى صيغة الغَيْبَة:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[الحج:١٦].

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٣- الالتفات من صيغة المتكلم إلى مخاطبة الرسول:

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق: ٤٥].

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

٤ – الالتفات من صيغة خطاب الرسول إلى صيغة المتكلم:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

٥ – الالتفات من صيغة الغَيْبَة إلى خطاب الرسول:

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه: ١١٤].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وهذه الشواهد التي أوردناها ما هي إلا نماذج أو عينات لقليل من بحر يتدفق ببراعة الالتفات في القرآن، والذي لا تكاد تخلو من ألوانه وعجائبه صفحة من المصحف أو بضع آيات منه. وهو أيضا من أروع دلائل الإعجاز البياني؛ من أروعها لأنه يبث حياة متدفقة في الكتاب كله، باعثها خالق الكون ومُنْزِل القرآن.

النتيجة: ما هو بقول بشر

لذا فإن القارئ المنصف، والمتتبع الواعي لهذا التنوع والتبدل المطرد للخطاب بين دفتي الكتاب العزيز لا يملك إلا التسليم بأن الذي يدير هذا الخطاب كله ويصدر عنه:

١-هو مصدر خارج مستقل عن ذات الرسول المُبَلِّغ.

٢-خارج مستقل عن كل العالَمين المخاطَبين.

٣-جليل يوجه الخطاب دوما بما يناسب قدره وجلاله، وينأى به عما لا يليق به.

٤-حكيم عليم بطبيعة المخاطَبين وحالهم، وبالخطاب الأمثل لهدايتهم والتأثير عليهم.

ولا يحتاج قارئ القرآن لأكثر من التمهل والانتباه، وقليل من التدبر لمسار الخطاب وتغيره من موضع لآخر؛ حتى يدرك ويلح عليه اليقين: أن هذا النص إنما هو كلام الله إلى كل خلقه، يعلن فيه عن نفسه ويتجلى بشتى أساليب الخطاب: مخاطبا الرسول، ومخاطبا فئات من الناس، ومخاطبا الناس جميعا. إذ ليس في مقدور بشر أن يتصنع كلاما – بهذا الطول وهذا التنوع في السياق وتوجيه الخطاب بالالتفات (التغير في توجيه الخطاب) المتكرر؛ بحيث يبدو وكأنه صادر (في كل لفظ وعبارة منه) من الله كما في القرآن، ولا بما يناسب قدره وينزهه عما لا يليق به كما في القرآن، ولا بما يحقق أعظم تأثير طبقا لمقتضى الموضوع وحال المخاطَبين كما في القرآن.

فالقرآن كله معجز، من كل وجه معجز. إلا أن هذا الوجه وحده – أي أسلوب توجيه الخطاب – نحسبه أقوى الوجوه؛ لأنه يتعلق باستحالة أن يصطنع بشر كلاما يوجه فيه الخطاب: بحيث يتقمص فيه دور الله وجلاله؛ إذ ليس في مقدور بشر أن يتجاوز بفكره وإدراكه حدود أفكاره الخاصة وقيود مشاعره الذاتية. وهذا تحدي قائم إلى قيام الساعة، ونتيجته معروفة مسبقا، وثابتة بشهادة التاريخ وبما هو واقع مدرك من طبائع البشر وقدراتهم النفسية واللغوية، وبعض تعليله هو ما أسلفنا من تحليل.

وهذا التتبع والتدبر لتوجيه الخطاب في القرآن مدخل إلى اليقين بإعجاز القرآن وصدق تنزيله من المولى عز وجل، دون تدخل بشر ولا عبث عابث. وهو أيضا المدخل الأقرب والأيسر؛ حيث لا يتطلب إتقانا لعلوم اللغة ولا غوصا في أسرار البلاغة. بل إني أحسب أن القارئ الأعجمي لترجمات معاني القرآن بأي لغة (إن التزمت الدقة في مطابقة توجيه الخطاب لما في الأصل العربي) سيدرك هو الآخر ويستشعر ما يتوصل إليه كل قارئ متدبر واعٍ: أن الذات المتكلمة من خارج البشر وفوق كل البشر.

وربما كان هذا الإدراك والاستشعار هو العامل الأساسي وراء دخول الرعيل الأول من العرب في الإسلام بمجرد سماعهم لآيات معدودة من القرآن. فقد أدركوا بسليقتهم وفطرتهم اللغوية، ولأول وهلة - قبل أن يكتمل التنزيل ويتبين التشريع – أن هذا "الخطاب" ليس كلام بشر؛ بل قول الأسمى من كل البشر، فآمنوا به وسلَّموا. لم يكن الأمر مجرد انبهار بروعة النص وسمو العبارة فوق كل ما عرفه السابقون واللاحقون من شعر أو نثر؛ فالانبهار وحده مدعاة للإعجاب والإمتاع ثم الإشادة، وقد لا يكون لدى البعض سببا كافيا وحده للإيمان بَلْهَ اليقين، ذلك الإيمان واليقين الذي ترسخ في قلوب المؤمنين الأوائل، ومن تبعهم بإحسان، فواجهوا به الدنيا بأسرها وشروا به بظهر الغيب دار الخلود.

الخلاصة

- البيان القرآني معجزة المعجزات، اجتمعت فيه أقصى درجات الجمال والسمو والكمال، بحيث تعجز عقول البشر – أفرادا أو مجتمعين – عن الإتيان بمثله، أو الوفاء بأي مما عرضنا له، في الفصل الأول، من شتى جوانب إعجازه، فضلا عن الوفاء بها مجتمعة.

- وشأن الرسول الكريم ﷺ مع الوحي لا يتجاوز شأن المتلقي المترقب، والمبلغ الأمين حرفا بحرف وآية بآية، كما أسهبنا وأثبتنا في الفصل الثاني.

- ثم سلطنا الضوء على ذلك الالتفات المتكرر في القرآن، من صورة من صور الخطاب لأخرى، بحيث يتجلى الله بصيغة أو ضمير المتكلم في الموضع المناسب لجلال ربوبيته، ويذكر بصيغة أو ضمير الغائب في غيرها بما يليق أيضا بجلاله؛ وبحيث يخاطَب الرسول عند الاقتضاء بنص خارج مستقل عن ذاته.

- كل ذلك يثبت ويؤكد ويجزم أن هذا الخطاب القرآني وإدارته بهذه الدقة والبراعة، التي ما بعدها دقة أو براعة، إنما ينبع من خارج الرسول المبلغ الأمين، ومن مصدر عليم فوق كل البشر: من العليم الحكيم ذي العلم الأسمى، الذي ينفد البحر قبل أن تنفد كلماته، وهو الذي تحدى

البشر فعجزوا وسلَّموا وأيقنوا بعجزهم أن يأتوا بمثل هذا القـرآن إلى قيـام الساعة.

ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.

***

تدريبات إيمانية

بعد أن تعرفت على نماذج شتى من أساليب الخطاب، وصور الالتفات التي يزخر بها القرآن، ويعجز عن الإتيان بمثلها الإنس والجان؛ وخاصة تلك التي يتجلى فيها الخطاب من الله بالصيغ النحوية للمتكلم، وكذلك التي يوجه فيها الله تعالى خطابه مباشرة إلى الرسول ﷺ بصيغ مختلفة:

١- درب نفسك في قراءتك للقرآن على تتبع أمثالها، وتذوق معناها وتدبر جليل حكمتها. ثم وطن نفسك كلما تعاود القراءة القرآن على التنبه إلى اتجاه الخطاب، وكيف يصرفه المولى عز وجل في الموضع الأمثل والسياق الأنسب: معلنا عن نفسه جل وعلا، أو مخاطبا الرسول ﷺ ، أو هاديا ومبشرا المؤمنين، أو مبكتا ومنذرا الكافرين، أو منبئا بجلال أسلوب الغَيْبَة عن عجائب قدرته وتفرد صفاته، أو مشيرا إلى غيبه الذي استأثر بعلمه عن بداية الخلق أو أمور الآخرة.

٢- تأمل أيضا ما تؤول إليه أي عبارة تتعلق بالله تعالى (بصيغة المتكلم أو بصيغة الغَيْبَة) إن قلبت أسلوبها إلى غير ما نزلت به: كيف تتدنى بالمعنى بعيدا عن جلال الربوبية؟ لتوقن بأنك إنما تصغي بسمعك وعقلك وقلبك إلى كلام منزل الكتاب الهادي العليم الحكيم.

٣- ثم وطن نفسك بعد ذلك على الإلمام بأساسيات علوم البلاغة والنحو والأساليب الإنشائية، لتتمكن من تتبع وتذوق إعجاز البيان في

القرآن. استعن في ذلك بالتفاسير التي تعتني بجلاء الأساليب البلاغية، مثل: "صفوة التفاسير" لمحمد علي الصابوني، و"في ظلال القرآن" لسيد قطب، و"التفسير المنير" لوهبة الزحيلي. وللتوسع يمكنك إن استطعت الرجوع إلى مراجع إعجاز القرآن التراثية منها والمعاصرة.

٤- اعتن أيضا بالتعرف على أسباب النزول، وخاصة لتلك الآيات التي يرد فيها الخطاب موجها إلى الرسول ﷺ. استعن في ذلك أيضا بما ورد في أو على هامش كتب التفسير.

***

دليل المراجع

أولا- مصادر إعداد الكتاب:

١- فتحي عبد القادر فريد – فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب – مكتبة النهضة المصرية – ١٩٨٤.

٢- مالك بن نبي – الظاهرة القرآنية (ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم محمود محمد شاكر) – مكتبة دار العروبة – ١٩٥٨.

٣- محمد أبو زهرة – المعجزة الكبرى القرآن – دار الفكر العربي.

٤- محمد سعيد رمضان البوطي – من روائع القرآن – مكتبة الفارابي بدمشق.

٥- محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم (تحقيق عبد الحميد أحمد الدخاخني) – دار المرابطين بالإسكندرية.

٦- محمد قطب – لا يأتون بمثله – دار الشروق.

ثانيا- مراجع نافعة للاستزادة:

٧- سيد قطب – التصوير الفني في القرآن – دار الشروق.

٨- سيد قطب – مشاهد القيامة في القرآن – دار الشروق.

٩- عائشة عبد الرحمن – الإعجاز البياني للقرآن – دار النشر للجامعات.

١٠- عبد الصبور شاهين – حديث عن القرآن -- دار أخبار اليوم.

١١- عبد العظيم المطعني – خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية – مكتبة وهبة.

١٢- عبد الكريم الخطيب – الإعجاز في دراسات السابقين – دار الفكر العربي.

١٣- محمد محمود غالي – المترادفات في القرآن المجيد – دار النشر للجامعات.

١٤- مصطفى صادق الرافعي – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – دار الفكر العربي.

***

الفهرس